التحولات الاجتماعية والنفسية في المجتمع بعد عام ٢٠٠٣
واثرها على سمات الشخصية العراقية

أ. م. د. علاء جواد كاظم الباحث: رشاد رزاق شطب
جامعة القادسية / كلية الاداب / قسم علم الاجتماع
soc.post05@qu.edu.iq

الملخص الدراسة

تعدّ دراسة الشخصية من المواضيع الشيقة والشاقة لدى العديد من الباحثين والمختصين في العلوم الانسانية وفي مقدمتها الانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها ، لما لها من اهمية . اذ تتسم الشخصية العراقية بفعل انظمة التنشئة الاجتماعية وتحت تأثير علاقتها بالمجتمع والثقافة بالعديد من الخصائص والسمات الثابتة والمتغيرة خلال العقود الاخيرة وخاصة بعد التشوهات الاجتماعية والنفسية التي حدثت في تغير بعض سمات الشخصية العراقية بسبب ما مر به المجتمع من ازمات سياسية واجتماعية ونفسية خلال الاحتلال الامريكي للعراق ٢٠٠٣ .

الكلمات المفتاحية
الشخصية ، الأنثروبولوجيا ، التحولات ، سمات الشخصية

Abstract:

The study of personality is one of the interesting and difficult topics for many researchers and specialists in the humanities, especially anthropology, psychology, sociology and others, because of its importance. As the Iraqi personality is characterized by socialization systems and under the influence of its relationship with society and culture with many fixed and changing characteristics and features during the last decades, especially after the social and psychological distortions

that occurred in changing some of the characteristics of the Iraqi personality due to the political, social and psychological crises that the society went through during the American occupation of Iraq 2003.

المقدمة

منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم انصب اهتمام علماء الانثروبولوجيا والنفس والاجتماع على دراسة الشخصية وانماطها، بوصفها انعكاس لثقافة المجتمع، إذ لابدّ لهذه الشخصية من انعكاس إن تتسم بسمات تلك الثقافة ، ويبدو أنّ للتحولات الاجتماعية والثقافية التي حدثت في المجتمع كان لها دوراً مؤثراً وكبيراً في الشخصية العراقية. فضلا عن ذلك عدّ مفهوم الشخصية من أكثر المفاهيم تعقيداً لأنه يشمل على كل الجوانب النفسية والاجتماعية كما أن نمط الشخصية له علاقة وثيقة بالمظاهر السلوكية تلك التي تصدر عن الفرد من أسلوب حياته ونمط معيشته وعلاقته بالآخرين والبيئة والمحيط الاجتماعي وكل الأنشطة الاخرى.

وقد اتفق علما الانثروبولوجيا تحديداً منذ القرن الماضي على الحقيقة الاتية: ان لكل مجتمع (شخصية) مميزة يتصف بها افرده ويتميزون عن غيرهم, وهذا الاختلاف في نظامها وبنيتها وسماتها يرجع الى عوامل متعددة مثيرة, منها ما هو وراثي, ومنها ما هو تابع لتأثير البيئة الاجتماعي التي ينتمي اليها ويعيش فيها, حيث توجد صفات وسمات مشتركة بين الأفراد في المجتمع الواحد وتختلف من مجتمع الى اخر تحت تأثير الظروف البيئية والاجتماعية.

أولاً : مشكلة الدراسة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الشخصية العراقية بالبحث والتحليل منذ ان فتح عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي هذا المجال مطلع الخمسينات من القرن المنصرم, ومنذ ذلك الحين صدرت العديد من الدراسات في مختلف التخصصات التي كرست او أشارت الى موضوع الشخصية الوطنية, ولعل في مقدمتها تخصصات الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وكل حسب اختصاصه مع اختلاف المناهج والنظريات المستخدمة في القاء الضوء على الابعاد المختلفة الشخصية, فان الاكتفاء بأي منها لوحده لا يرسم لنا صورة واضحة عن معالم هذه الشخصية.

تحاول هذه الدراسة طرح بعض التساؤلات والاجابة عليها :

١- ما اهم السمات السائدة في الشخصية العراقية قبل وبعد تغير النظام السياسي في عام ٢٠٠٣؟

٢- هل ثمة تغيرات كبيرة حدثت في بنية وطبيعة الشخصية العراقية بعد الاحتلال الامريكي والقضاء على الدكتاتورية, ام انها مازالت تحتفظ بكل سماتها القديمة بدون تحديث ؟

ثانياً: اهمية الدراسة

تكمن اهمية هذه الدراسة في الدور المحوري للشخصية العراقية في مواجهة الصراعات والتحديات التي خلفها الاحتلال في تغير سمات الشخصية العراقية خاصة وانها العمود الفقري لتكوين وبناء مجتمع متوازان، فضلا عن التأثيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية التي ولدتها لدى البنية النفسية الفرد العراقي، كما تكمن اهمية هذه الدراسة في تشخيص المشكلات الشخصية العراقية وعيوبها والبحث في وسائل معالجتها، وتسليط الضوء بشجاعة على اهم الاعتلالات النفسية والاجتماعية والسلوكية للفرد العراقي والتركيز على دراسة الطباع السيئة والرديئة التي خلفتها هذه الصراعات.

ثالثاً: اهداف الدراسة

١- تهدف الدراسة الى تحديد اهم التحولات التي حدثت لبعض سمات الشخصية العراقية بعد تغير النظام واحتلال الولايات المتحدة للعراق عام ٢٠٠٣.

٢- تهدف الدراسة لتبيان اهم التحولات الاجتماعية والنفسية للمجتمع العراقي التي تركت اثراً بدورها على للشخصية العراقية بعد عام ٢٠٠٣.

٣- حاولت هذه الدارسة فهم السلبيات والنواقص والعيوب والاعتلالات في سلوك الفرد العراقي قبل وبعد الاحتلال للعراق عام ٢٠٠٣

المبحث الأول: التحولات الاجتماعية والنفسية في المجتمع العراقي

التغير هو الجراء الاساس بطبيعة الحياة, والمجتمعات البشرية التي تتسم بالتغير الدائم الاجتماعي والثقافي واذا كان ثمة اختلاف بين المجتمعات فهو من حيث درجة التغيير ومداه. وقد شهد المجتمع العراقي

تغييرات مستمرة حتى وصل الى الصورة التي نراها عليه الان, قد شهد العصر الحديث ازدياد معدلات هذا التغيير بحيث اصبح الانسان يجد صعوبة في ملاحقته وتعقب آثاره المختلفة على جوانب الحياة الانسانية كافة ,على وفق نتائج البحوث الأنثروبولوجيا النفسية ان الشخصية تمثل قوة تمارس دورا مزدوجا في حفظ ثقافة المجتمع من خلال التنشئة الاجتماعية التي تكفل غرس القيم والمعايير المجتمعية في شخصية الاجيال الناشئة جيل بعد جيل, ومن خلال ضبط اطر وبناء الشخصية يكفل المجتمع استمرارية وديمومة ثقافته وعاداته وتقاليده, وان عملية الحفظ هذه تمر بمراحل بطيئة ومنتظمة لتواكب التغيرات التي تحدث في المجتمع, وان أي تحول سريع ومفاجئ يحدث لمجتمع ما، قد يسبب الكثير من التناقضات والنواقص في تكوين الشخصية, لذلك اذا اردنا ان نفهم اهم التحولات التي طرأت على الشخصية العراقية بعد الاحتلال الامريكي في ٢٠٠٣, لابد من دراسة التحولات الاقتصادية والطبقية في المجتمع العرقي ، والتحولات الاجتماعية والنفسية في الآسرة العراقية بعد الاحتلال الأمريكي ، وكذلك ازمة الثقة بين الافراد والسياسات الحكومات المتعاقبة بعد عام ٢٠٠٣، وما سببته من أزمات كبيرة في الشخصية العراقية .

أولا: التحولات الاقتصادية والطبقية واثرها في الشخصية العراقية :

التغييرات الاجتماعية "هي التعديلات و التحولات التي طرأت على المكانة و الأدوار و الوظائف و العلاقات والنظم والقيم والاتجاهات والمواقف الاجتماعية والحضارية للأفراد أو الجماعات أو المجتمعات".(١)

لقد مثل الاحتلال وما سبقه من حصار لمدة اكثر من ١٥ سنة في استهدف وتدمير المجتمع العراقي (حضارة، بنية ، شخصية ، موارد) ، من خلال إحداث حالة من الشلل المؤسساتي هدد جميع مفاصل الحياة، وجعل المجتمع في حالة حرمان شديد من ابسط مصادر إشباع الحاجات الاساسية، بصورة عجزت خلالها المنظومات القيمية من الحفاظ على حد أدنى من التفاعل الايجابي بين الافراد والجماعات والمؤسسات، وزاد النظام السابق برئاسة صدام حسين من شدة الحصار وقوته وتفنن في ضيق الخناق على الشعب بكافة شرائحها ومستوياته, كما أدت الى شيوع ظواهر الاحباط والقلق واليأس بين الافراد وتلاشت الآمال بإمكانية تحقيق منجزات تنموية حقيقية, وقد ظهرت العديد من التحولات الاجتماعية والنفسية على الشخصية العراقية ومن اهم هذه التحولات

ان الطبقة الاجتماعية أحد مفاهيم الاساسية في اي بناء اجتماعي قائم ومن أقدم الموضوعات التي نالت قسطا كبيرا من اهتمام الباحثين, والمهتمين بدراسة العلوم الاجتماعية والانسانية. او كما يراها حنا بطاطو "ان الطبقة هي من حيث الجوهر تشكيلة ذات اساس اقتصادي, على الرغم من مفهوم الطبقة يشير في نهاية المطاف الى الموقع الاجتماعي لعناصر الافراد والاسرة المؤلفة للطبقة في مختلف جوانب هذا التشكيل, هذا من جانب اما من جانب اخر لنفس تلكى الرؤيا, فيرى ان مفهوم الطبقة يفترض او يتطلب وجود فكرة (اللامساواة) أي وجود تفاوت بين (الملكية) بين طبقة معينا او واحدة اخرى في الاقل"[٢] . واذا ما خذنا هذه النظرة وهي التي تتوافق مع نظرية الصراع الطبقي لماكس فيبر لذلك "ليس غريب ولا جديد الحديث عن الفروق الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العربي عام والمجتمع العراقي خاص, ولا مبرر للإحساس بأن ذلك يتناقض ودراسة الشخصية وثقافتها, فهذه الفروق قد جاءت نتيجة عوام مختلفة في مقدمتها فرص التحصيل العلمي والدخل والحراك الاجتماعي " .[٣]

ان الوضع الاقتصادي السيء الذي عاشه الشعب العراقي في العقد الأخير من القرن العشرين بسبب الحروب التي خاضها النظام الدكتاتوري السابق والحصار الذي أوصل غالبية أبناء الشعب الى دون خط الفقر, خلف شرخا في المجتمع تمظهر في الانقسام الاقتصادي الأفقي الذي حدث في بنية المجتمع العراقي, وقد تراجع الواضع المعاشية لمعظم موظفي الدولة عمودها الفقري, اذ تراجعت مرتباتهم الى اقل من دولار شهريا.

"ان ابرز اشكال التغير الاجتماعي الذي حدث كان الحراك الاجتماعي غير المدروس والمفاجئ الذي لم تحسب نتائجه لأنه من المعلوم أن الحراك الاجتماعي الذي يتم وفق مخطط تنموي غالبا ما يكون مجاله الحيوي محدودا وضيقا بل إنه قد يتلاشى لاحقا بفعل الجوانب الايجابية , على العكس من الحراك الاجتماعي الطارئ الذي تكون عواقبه وخيمة, ولتوضيح الفرق بين الاثنين (الحراك المخطط , والحراك الغير مخطط) ان الحراك المخطط غالبا ما يراعي المصلحة العامة من خلال ما تدعيه المنظومة السياسية الحاكمة كتبريرات لبقائها في السلطة , اما الحراك الغير مخطط فهو حراك طارئ غالبا ما يحدث بفعل عوامل طرئ مثل الثورات والانقلابات. والاحتلالات وهذا ما حدث في المجتمع العراقي بعد الاحتلال الامريكي".[٤]

وسواء كان التغير مخططا او غير مخطط فانه في جميع الاحوال ينتج " نوعين اساسيين من الحراك, "حراك عمودي" يشير الى التحرك الى أعلى او أسفل التدرج الاجتماعي واخر "افقي" يشير الى تحرك الفرد من الجماعة او الطبقة مماثلة من دون أحداث تغير في وضعه الاجتماعي". [٥]

فالتغيير في الطبقة الواحدة كان في الاساس في ظل ظروف الاحتلال الأولى تغيرا اقتصاديا بالدرجة الاولى وحدث توسع كبير في ظل عدم وجود ضرائب وتنامي الدخل ورفعه من قبل سلطة الاحتلال, كنوع من كسب الود الداخلي والخارجي من خلال تغير المستوى المعاشي للفرد العراقي ,فتترتب على ذلك حراك افقي له أوجه عمودية, وخير مثال على ذلك بعض التجار الذين استغلوا الظروف الاستثنائية لتفاقم ثرواتهم الاقتصادية على حساب بقية طبقاتهم , وقد حقق ذلك لهم حراك عمودي وهمي الانه لم تترتب عليه أية تغيرات سلوكية تؤثر لهذا الانتقال والتي سمحت الى بعضهم بالتميز المادي دون التميز السلوكي , وقد كان لهذا التغير المادي تغير اجتماعي سلبي بسبب التصور المجتمعي السلبي اتجاه النشاط الاستغلالي لأوضاع المجتمع الذي كان يعاني من ازمات متتالية والتي كان المستفيد منها هم التجار نفسهم.

اما طبيعة التغير الاخر الذي حدث في المجتمع العراقي " كان واضح جدا بضهور طبقة سياسية لعلها كانت او لم تكن أصلا منخرطة في العمل السياسي احتلت المراكز العليا في الدولة وتمكنها من السيطرة على مقدرات الدولة الاقتصادية, في المقابل نزلت الى اسفل السلم الاجتماعي الطبقة السياسية الحاكمة سابقا, وايضا في الوقت ذاته ما حدث من تغير على مستوى الطبقة الواحدة".[٦] فالأفراد الذين كانوا ينتمون الى النظام السابق وهم اغلبهم من الطبقتين العليا والوسطى, قد تغير مكانتهم الاجتماعية الى اسفل السلم الاجتماعي بصورة مفاجئ وغير متوقعة, في المقابل هناك طبقة اجتماعية معارضة او غير ما عرضة للنظام السابق اصبحت في قمة السلم الاجتماعي مستغلة عوطف الحرمان والاضطهاد في موقعها الطبقي السابق وهو يعتبرون انفسهم من الطبقات الوسطى والدنية لهم فتنامه عدة سمات وخصائص في ان واحد وهي (القلق , الانتقام والعنف , والازدواجية الانتماء) وهناك جماعات اتسمت بطابع القلق والخوف من الواقع والمستقبل وهذا الجماعات بالغالب هم اشخاص كانوا ينتمون الى النظام السابق أي الطبقة العليا, وفي نفس الوقت هناك جماعات كانت تمارس العنف والانتقام وتنادي به علنيا اتجاه الجماعات السابقة , لذلك افرزت التحولات صراعات اشبه بالصراعات الطبقية ويمكن تسميتها بالصراعات الوقتية, و ساعد للمشهد المربك

والمفاجئ في تكوين جماعة ثالثة لديها ازدواجية في الانتماء وذلك بسبب الخوف او المصالح المادية والى اسباب اخرى .

ثانيا: التحولات الاجتماعية والنفسية في الآسرة العراقية بعد الاحتلال الامريكي:

تعد الأسرة من اهم "التنظيمات أو المؤسسات الاجتماعية للإنسان بدءا من طفولته ومرورا بكافة مراحل حياته, فهي عماد المجتمع ونواته بصلاحها يصلح المجتمع ويسعد أفراده, وبفسادها يفسد المجتمع ويختل توازنه."[٧] وخصوصا المجتمعات التقليدية والنامي. ام في المجتمعات المتقدمة فالدور الذي تلعبه الاسرة في التنشئة الاجتماعية مختلف تقريبا, فهو ضعيف واقل قدرة في التأثير عنه في المجتمعات النامية, وذلك لوجود مؤسسات اخرى أكثر فاعلية تسهم في عملية التنشئة الاجتماعية فيكون دور الاسرة في المجتمعات المتقدمة ضئيلا بشكل واضح, وتأثيرها في سلوك اعضائها محدود ان لم يكن غير واضح.[٨]

وتشير الدراسات الاجتماعية ان الاسرة "تتأثر بصورة عامة بالتغيرات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية في مختلف انحاء العالم التي تحدث داخل مجتمع ما."[٩]

فالتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي تعرض لها المجتمع العراقي قد انتجت مجموعة من التغيرات التي لعبت دور كبير في حدوث شروخ عميقة في جدار الاسرة، الأمر الذي دفع نسبة عالية من الأسر نحو تهديد التفكك والظواهر السلبية العديدة, وإذا كانت الاسرة العراقية قد مرت بعدة تحولات بتأثير الهجرة والتحضر والتصنيع أضعفتها بنائيا، أو اعاقتها عن أداء وظائفها بالمستوى الملائم، فان تأثير الازمات المتعاقبة قد قوضت مساراتها التنموية وادوارها التمكينية بسبب التصدع في بناء الاسر (فقدان احد الابوين واليتم والتشرد والتهجير القسري والطلاق والعنوسة وغيرها)، كما أسهمت التغيرات المتسارعة وظروف الازمات الى تغيير هيكل العلاقات المتبادلة داخل الأسرة وتفاقم المشكلات والتحديات للأفراد والأسر .

واذا ما اخذنا تساءل الباحث مايكل أوترمان في كتابه محو العراق بعد سنوات عجاف من غزو العراق "ما الذي تتركه الولايات المتحدة وراءها في العراق" ويجيب على التساؤل نفسه " لاتزال نساء العراق واطفاله الاكثر ضعفا عرضة للخطر"[١٠] من هذا التوصيف نعرف حجم معاناة الاسرة العراقية بعد الاحتلال الامريكي للعراق فان ظروف الاحتلال فرضت على الاسرة أعباء وضغوطات جديدة فإلى جانب استمرار

التردي في الموارد المادية والمعنوية للأسرة بسبب ظروف الحصار, وتردي الخدمات حتى غابة بعضها بعد الاحتلال, اضافة الى استخدام قوات الاحتلال الامريكية في كثير من الاحيان العنف غير مبرر مع المواطنين, وعدم الاهتمام بالأمور الانسانية في بداية دخول القوات العسكرية, الامر الذي فرض على العراقيين لاسيما الاسرة ضغوطات اجتماعية واقتصادية قاسية, تأكلت معها المعاني العائلية التي كانت تحافظ على البقاء والتماسك الاسري التي ورثته الاسرة العراقية عبر الاجيال كما رأى الدكتور الوردي" ان التماسك العائلي في المدن العراقية هو احد مظاهر التراث, فبينما نرى الحياة البيتية في المدن العراقية ضعيفة, نرى التماسك العائلي فيها قوي جدا فأفراد العائلة على الرغم من قلة تعاشرهم واجتماعهم في البيت, نجتهم في الوقت نفسه يشعرون بالرابطة القوية تربط بينهم تجاه الغريب فهم يقفون في السراء والضراء متضامنين ومتماسكين واذا أصيب احدهم بنكبة أحطوا به يساعدونه فيها"(١١)

ومن سمات التماسك الاسري هي السمة المتمثلة باحترام الوالدين وتخاذهم قدوة في القول والعمل, فهذه السمة اصبحت هناك صعوب بالحفاض عليها, بعد أن فتح الاحتلال أبواب البث الفضائي والهواتف النقالة والانترنت على مصراعيها حتى تحول الأمر إلى ما يشبه الوباء الفتاك الذي لا يسلم منه احد فقد دخل الستالايت جميع البيوت العراقية وأضحى الجوال رفيق العائلة حيث لا يخلو منزل منه، وكلنا يعلم مساوئ هذا الأمر وخطورته ففي ظل صعوبات الحياة التي خلفها الاحتلال وفرضها على العائلة العراقية وانشغال الأبوين بتوفير لقمة العيش انغمس الأبناء في متابعة القنوات التلفزيونية الهابطة, وسيادة الانترنيت وانتشار الهواتف بعدة حرمان رهيب، كل ذلك وغيره الكثير هدم الالتزام الأخلاقي بين أفراد الأسرة العراقية التي هي عماد تماسك المجتمع وصارت قصص تذمر الآباء والأمهات من تصرفات أولادهم من اعتداء بالكلمات البذيئة إلى العصيان والتمرد بوجه الآباء والأمهات وفقدان الترابط الأسري بين العوائل حديث الناس أينما اجتمعوا، والحال من سيء إلى أسوء، أما قصص قتل الآباء لأبنائهم وبناتهم وقتل الأبناء لآبائهم وأمهاتهم فلم تعد بالغريبة في المجتمع بل تطور الأمر ووصل حد ارتكاب جرائم مروعة لأسباب لم تكن مألوفة قبل أن يجثم الاحتلال على صدور العراقيين والذي يقلب صفحات الصحف العراقية التي تصدر بالعشرات يوميا يجد الكثير من هذه القصص التي تدل على انهيار اجتماعي مرعب ضرب الجسد العراقي, لذلك هذه الوظيفة التربوية التي تقوم بها الاسرة وهي تنظيم سلوك افرادها بما يتلاءم التغيرات الحضارية بعد الاحتلال تغيرت

بصورة كبيرة في ضل فوضة وسائل التوجيه المستحدثة وهي الاعلام والانترنيت وغيرها من الوسائل, لتي زادة من نسبة الحرية الشخصية للأفراد وخذت تحل محل التوجيه الاسري المتعارف علية وبصورة سريعة ومربكة وغير مقننة وقد لا تتناسب مع افكار الابوين الذين يعشون وسط ثقافة تقليدية, وبالتأكيد لهذه التحولات والتغيرات الاثر في تشكيل الشخصية العراقية نفسيا واجتماعيا. والجدول الاتي يوضح بعض التغيرات التي حدثت على الاسرة العراقية.

ثالثا: اثر ازمة الثقة بين الافراد وسياسات الحكومات المتعاقبة على تشكيل الشخصية العراقية:

إذا كان المجتمع شرطاً للدولة، فان الدولة ليس شرطاً للمجتمع، الدولة قد تقوم وتنهار، ولكن المجتمع عادة أكثر دواماً واستمراراً، وإذا كان وجود سلطة سياسية أمراً ضرورياً في كل مجتمع، فليس شرطاً أن تكون هذه السلطة "هي الدولة بالمعنى الذي تعارفنا عليه هنا، وإذا كانت الوحدة البشرية الأساسية في الدولة هي المواطن ، فان الوحدة البشرية الأولى في المجتمع هي الإنسان الفرد".(١٢)

عانى العراق لفترات طويلة من الحكم الدكتاتوري والاستبداد السياسي، وانتهاك حرية الانسان، وخاض العديد من الحروب الطويلة والمدمرة لينتهي المطاف باحتلال امريكي على العراق، وتغيير تسمية النظام من نظام جمهوري شمولي دكتاتور الى نظام ديمقراطي ناقص الملامح، اذا يمكن التساؤل ماهي التغيرات التي حصلت لسمات الشخصية العراقية جراء هذا التغير المفاجئ في الشأن السياسي؟

تحدث الفجوة وفقدان الثقة بين الدولة والمجتمع " نتيجة عدم قدرة النظام السياسي القائم على تلبية المطالب الشعبية المشروعة, ولاسيما فيما يخص النظام السياسي القائم على تلبية المطالب الشعبية المشروعة, ولاسيما في ما يخص الخدمات, مما يؤدي الى انسلاخ النظام السياسي عن المجتمع وتسخيره لمؤسسات الدولة, والتي ينبغي ان تكون ثابتة ولا تتأثر بتغير شخوص النظام السياسي أما الزيادة فاعليتها وتقديم الخدمات المطلوبة, وأما تكبيلها بقيود ادارية تتعلق بصاحب القرار السياسي وبشكل يمنعها أو يقيدها في تلبية الخدمات والمطالب الشعبية بذرائع عدة"(١٣)

ان الاوضاع الاقتصادية والامنية والاجتماعية ساعدت بتعزيز مبدأ التشكيك وعدم الثقة بين المواطن وتصرفات او سياسيات تلك الحكومات والتي اصبحت ظاهرة مستدامة في المجتمع العراقي الامر الذي يدفع

الافراد الى عدم تصديق اية اجراءات او سياسات تتخذها السلطة السياسية التي تحكم , وهذا انعكاس على ثقافته السياسية اما ان تكون غير مهتمة بتلك السياسات والاجراءات وفق اصطلاح اللامبالاة السياسية, او الجهل السياسي كما يصفه علماء الاجتماع او ان تكون ثقافة السياسية عنيفة ثورية تدعو وتتجه نحو التغيير ويتخذ اسلوب العنف هذا اما تصريحات اعلامية او تظاهرات مناهضة تطالب بالتغير الشامل. وافضل مثال على هذه الظاهرة من واقعنا الحالي .

واذا اردنا التعرف على اكثر على الأسباب التي ادت الى زعزعة الثقة بين الافراد والحكومات بصورة عامة فبإمكاننا ان نقول: أن عهود الاضطهاد والظلم والتنكيل الشنيع الذي مارسته الدولة بمعنها الشامل, ضد الانسان في العراق قبل وبعد الاحتلال الامريكي قد زرعت في نفسه وروحه عداءاً ثابتا ومتأصلا وكرها مستديما ضد مفهوم الدولة والحكومات أيا كانت تسميتها ودلالاتها وقد اصبح ذلك الكره والعداء والتشكيك جزاء لا يتجزأ من وعيه الاجتماعي ومن سلوكه اليومي التلقائي ومن ثقافه الاجتماعية والحياتية وبقلى هذا العداء والتشكيك هو الوجه الخفي في اعماق اللاوعي لتصرفاته حتى الوقت الحاضر رغم كل التبدلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد ادى هذا الامر الى وجود خلط وتداخل في ذهن الفرد العراقي بين مفهوم الدولة او السلطة ومفهوم الوطن. وكما يقول باقر ياسين في كتابه (الشخصية العراقية)" الأخطر من ذلك هو توصل الفرد العراقي الى قناعة راسخة بأن جميع ما يجري من فساد وخراب ونهب وسرقات وتدمير ساحق لقيم الشرف المسلكي والاستقامة والوطنية هو بعلم السلطة الرسمية وبموفقتها بل وبمشاركتها وتشجيعها وهو أمر مؤسف ومدمر".(١٤)

يمكننا النظر الى طريقة تعاطي افراد المجتمع العراقي مع انتشار فايروس كوفيد ١٩, اذ اتسم هذا التعاطي بعدم المبالاة بالوباء رغم سرعة انتشاره والتشكيك بوجوده اصلا واعتباره في بعض الحيان موضوع سياسي ، فضلا عن عدم الثقة او لامتناع من الالتزام بالشروط والضوابط الصحية التي وضعتها الجهات المعنية في الدولة, لقد واجهه المواطنين بسخرية واستهزاء الى حد عدم الشعور بالمسؤولية من قبل البعض منهم, والتندر بالقول اننا واجهنا كل صعاب الدنيا من حروب الى حصار الى ارهاب وتشريد وتجويع التي ساهمت في ضياع اجيال من الصحة والتعليم والعدل والمعرفة, فاصبح المواطن يقول هل الوباء سيأخذ اكثر مما اخذته الحروب والارهاب والفساد الاداري.

من هنا نعرف لماذا المواطن لم يلتزم بحظر التجوال ولم يلتزم بدعوات التباعد الاجتماعي او عدم حضور المناسبات الاجتماعية, وذلك يرجع الى زعزعة الثقة بين الافراد والحكومات المتعاقبة والتشكيك بجميع التوجيهات والتصرفات التي تصدر من قبل تلك الحكومات, قد نجد هناك من يقول ان المجتمع العراقي لم يكن الوحيد الذي لم يلتزم افراده بتحذيرات مخاطر الوباء فهناك مجتمعات قريبة حولنا ايضا لم يتحملوا مطالب الحجر المنزلي الاجباري وغيرها من الشروط, ولكن في ذات الوقت مثل هكذا مجتمعات لديها البدائل التي تقلل الى حد من مخاطر الوباء وتمنع انتشاره الواسع, هي لم تتعرض لمشاكل اقتصادية وصحية وبيئية مزمنة او حروب وارهاب مثلما تعرض له المجتمع العراقي من مشاكل طيلة العقود الماضية وهي لم تعاني من تقاطعات سياسية وتجاذبات اثرت على المواطن بالدرجة الاساسية.

وسواء كانت هذه الآراء والقناعات السائدة والمنتشرة على نطاق واسع بين العراقيين حقا ام باطلا, صدقا ام كذبا, تستند الى الدلائل ام لا تستند فإنها في جميع الأحوال تشكل بحد ذاتها كارثة وطنية واجتماعية كبيرة موجودة على أرض الواقع وتتطلب المعالجة الجدية والصارمة والسريعة الا انها كافية وحدها لتدمير مشاعر الالتزام بالانتماء الوطني لدى الفرد العراقي ودفعه الى موقف اللامبالاة مما يجري في وطنه ما دام مقتنعا ومؤمنا بهذه الآراء التخوينية تجاه جميع المسؤولين في بلاده وهذا بحد ذاته له اثر كبير في عملية تشكيل الشخصية العراقية نفسيا واجتماعيا.

المبحث الثاني: سمات الشخصية العراقية النفسية والاجتماعية

توصل علماء الاجتماع العراقيين الى تحديد مجموعة من السمات النفسية والاجتماعية، من خلال دراساتهم للشخصية العراقية، وفي هذا المبحث نناقش تحليل اهم هذه السمات التي امتازت بها الشخصية العراقية، في ضل التغيرات التي طرئت على تلك السمات بعد العام ٢٠٠٣، بسبب التحولات السياسية والمادية والثقافية في ظل الاحتلال الامريكي للعراق وما رافقه من احداث عصفت في كيان الشخصية العراقية ومكوناتها الاجتماعية. إذ تمتاز الشخصية العراقية بسمات عديدة أهمها :

اولا: السمات النفسية في الشخصية العراقية :

تعد السمة النفسية من السمات المهمة التي تترسخ في الشخصية ومنها :

١ _ التسلط والعدوان في الشخصية العراقية:

"العدوان هو نمط من السلوك المعبر عن غريزة الموت بحسب فرويد وممكن أن يوجه الى الذات او الى الاخر او الى الخارج". "[١٥] او بمعنى اخر هو نمط من السلوك ينتج عن وجود خلل في النظام الاجتماعي".[١٦] فاذا كان الانسان يولد باستعداد يجعله يحتفظ بمثيرات العدوان فتتراكم لتصل الى مستوى التوتر الذي يؤدي به المسلك العدواني, وقد تكون بعض العاب الاطفال او الاعتداء على الاخرين هو المسلك لتفريغ الشحنات العدوانية, فالاستجابات العدوانية طاقة كامنة يجب أن نتفادى إثارها حتى لا تتحول الى طاقة حركية عدوانية في المستقبل , وبذلك يصبح دور التنشئة الاجتماعية في هذه الحالة هو أن نجنب الافراد مواجهة المثيرات التي توادي الى العدوان. "اذا فالتحكم في العدوان يكون عن طريق أسلوب التنشئة الاجتماعية المتبعة فلكل مجتمع منهج خاص او اسلوب خاص في التنشئة وهذا ما يخلق التنوع في المسارات الثقافية بين مجتمع واخر وقد يكون في دخل المجتمع نفسه بين جماعة واخرى وتلعب اهداف التنشئة الاجتماعية التي يستخدمها المجتمع دورا رئيسا في تكوين وتشكيل الشخصية الاساسية, وكذلك تختلف أهداف التنشئة الاجتماعية تبعا للنظام الاقتصادي والقانوني, والاجتماعي ".[١٧]

وقد يكون هذا الامر صعب في المجتمع العراقي بسبب ما يواجه من تهديدات لحياة الافرد واحباط بسبب الظروف الراهنة في الواقع العراقي, واسلوب للتنشئة الاجتماعية المختلف في المجتمع العراقي من خلال العادات والتقاليد التي تشجع على التمايز الجنسي أي يجب ان يكون الذكر شديد وحاد وعنفواني وتكون المرأة اقل عنف وخاضعة للرجل,أي ان العنف يبدئ مع الفرد منذ الطفولة اما ان يكون عنيف مع الاخرين وذلك بتشجيع من الوالدين لزرع روح البطل في ذهن الطفل, او معنف مثل تربية المرأة وايضا بتشجع من قبل الوالدين للخضوع لأوامر الاب او الاخ والزوج, وان كانت تعسفية هذه من الناحية اصل العدوان في الشخصية.

اما من ناحية اخرى فيرى علم اجتماع الشخصية او الانثروبولوجيا الثقافية, هناك علاقة بين الشخصية العدوانية والظروف السياسية, فالظروف السياسية لها تأثير فعال في تشكيل الدوافع العدوانية لدى الفرد وفي تشكيل الشخصية العدوانية التي هي ذاتها الشخصية المتسلطة . كما يرى الدكتور عبد المنعم الحفني في موسوعة علم النفس ."قد ثبت تأثير الظروف السياسية كدوافع للعدوان فالأفراد في المجتمعات التي لها حكومات مستبدة قد يضمرون العدوان ولا يصرحون به, غير أنه لا يمكن تجنب العدوانية في المجتمعات التي تقوم على التنافس وخاصة عندما يقتضي هذا التنافس نوعا من السلوك يجافي الاخلاق وعندئذ تقوم المظالم وتكثر العوائق واوجه الاحباط ويترتب على ذلك أن يعنف سلوك الناس حتى لا يمكن ان يكون العنف طابعا للمجتمع". (١٨)

ومن الواضح ان التحول في النظام السياسي بعد وقبل الاحتلال قد لعب دور في تنامي حالة العدوان فحالات الانتقام من الاخر بصورة غير قانونية ومن قبل الافراد انفسهم بسبب عدم وجود سلطة رادعة وقد تكون هذه الخطوة متعمدة من قبل الاحتلال نفسة فحالات القتل والفرهود والتعدي على القوانين كانت تحت انظار جنود الاحتلال فان قلنا انا الجنود كانوا لا يساعدون المعتدين على الاعتداء فانحنوا على يقين انهم لم يمنعوا المعتدين من نشر الفوضة والخراب وحرق العديد من المؤسسات الحكومية المتبقية ونهبها.

اما الانثروبولوجيا الاجتماعية فتقدم تفسير للعدوان او السلوك العدواني التمردي المتسم بالعنف " على انه الاستجابة التي يرد بها المرء على الخيبة والاحباط والحرمان وذلك بأن يهاجم مصدر الخيبة او بديلا عنه" .(١٩) وهذا محدث في المجتمع العراقي بعد الاحتلال فالفرد العراقي اخذ يهاجم مصدر الاحباط النفسي للتعويض عن خيبة الامل بالهجوم على ازلام النظام الاسبق كان اول خطوة يقوم بها الافراد المحرومين والذين لديهم حساس بالغبن من قبل ذلك النظام الدكتاتوري ومؤسساته ولان النظام السابق كان قد حول جميع مؤسسات ودوائر الدولة الى تجمعات حزبية او داعمة فلم يفرق الفرد في الاعتداء بين المؤسسات الحكومية ومقرات حزب البعث, ثما تحول الصراع والاعتداء الى صراع مسلح ضد الاحتلال الامريكي الذي كان له رؤيا اخرة لم يكن المجتمع العراقي وعي لها وهي تحويل الصراع من شعب له الحق في مقاومة المحتل, الى صراع طائفي مقيت, بسبب عدم وجود من يطبق القانون وعدم وجود سلطة تكبح جماحه العدوانية اخذ الفرد

بالتطاول مع وجود منابر وفضائيات مدعومة من قبل المحتل واجندات خارجية وداخلية ومازالت دوامة البحث عن السبب ومهاجمته والاعتداء عليه موجودة الى يومنا هذا.

وهكذا فان العوامل الاحباط والخيبة والحرمان كما يراها علم النفس الاجتماعي هي "التي تشكل الاسباب في ظهور سلوك التمرد والثورة والعنف والتسلط لدى الافراد والجماعات باعتبارها ردود أفعال انتقامية حادة ضد الاحباط والخيبة والحرمان ، ومن الامور التي تستوقف الباحث في علم النفس الاجتماعي ان الموقف الواحد قد يؤدي الى استجابات مختلفة من جانب الأفراد والاحباط الذي يستجيب له اغلب الناس بالعدوان قد يؤدي ببعض الأفراد الى نوع من الجمود وعدم الاكتراث أو الانسحاب وانعدام النشاط وعدم الانتباه وذلك أن الفرد قد تبين أن المقاومة لا تجدي فيعمد الى الانسلاخ من الموقف واصطناع نوع من الركود العلمي بدلا من الالتجاء إلى الغضب والمهاجمة".[٢٠] ومن دعائم هذه النظرة هو الجملة الشعبية المتداولة (هذا البلد ما يصيرلة جارة) قد نسمع هذا الحديث من قبل الكثير من النخب التي يعتمد عليها البلد وقد تكون الركيزة والمعوّل من قبل الشباب الذي يطمح الى التغير نحو الافضل وهذا الانسحاب قد يكون بسبب الانتهازية والانتماء الحزبي او عدم الاكتراث والانسحاب بسبب خيبة الامل في الواقع او الخوف من الاعتداء من قبل من هم مستفيدين من وجود نظام فاسد.

ويتأثر السلوك العدواني بعوامل متعددة في المجتمع منها[٢١].

١ _ التقليد الذي يمارسه الطفل وهو يتعلم من الكبار أسلوبهم العدواني او من خلال توجيه الافراد للأطفال كما يحصل في مجتمعنا حيث تسود في اغلب الاحيان ثقافة (التغالب) حيث يعلم الكبارة الاطفال على تعنيف الغير من نظرائهم للشعور بحساس المنتصر او الغالب

٢ _ البيئة العدوانية التي تؤدي بالفرد الى الاحباط الذي يدفعه الى العدوان على الاخرين .اي ان البيئة الاجتماعية او العملية التي تكون فيها الاعتداء على الاخرين امر طبيعي هذا يؤادي الى العنف.

٣_الثقافة السائدة قد تكون محرضة على السلوك العدواني فمثلا في المجتمعات العقابية تكون معدلات الجريمة أعلى وهذا يعود الى غياب الحوار والتفاهم في حل المشكلات . فالثقافة قد تنمي السلوك العدواني أو تعتمد الى كفه وعدم التعبير عنه.

٣_الفروق الجنسية بين الذكور والاناث, والتي تؤدي بدورها الى الفروق في مثيرات العدوان وأنواع استجاباته . ان الباحث في المجتمع العراقي وكيفية تشكيل شخصية الفرد العراق سيلاحظ انه مجتمع ذكوري بامتياز فالذكر هو الامر والنهي في العديد من المواقف وحت اذا كانت شخصية الرجل ضعيفة فهذه الحالة ستكون مخفية عن الاخرين الا حالات قليلة تظهر تسلط المرة وتحكمها في الامور الحياتية.

٤_ ارتفاع درجة الحرارة وارتباطه بتغيرات في نمط السلوك ومنها حدوث حالات من الاعتداء أو القتل. فلل عامل الجغرافي أثر واضح في بعض السمات واظهارها او اخفى بعضها الاخر, ضمن التكوين النفيس لشخصية الفرد, [٢٢].

٥_ الخبرات المؤلمة التي يتعرض لها الفرد او مجموعة من الافراد في فترة ما من حياتهم من قبيل التعذيب أو إحداث عاهة بدنية ما او اعتداء ما ويظل تأثير تلك الخبرة المؤلمة باقي ويظهر السلوك العدواني عندما تكون الظروف مؤتية. والفرد العراقي بسبب ظروف الحصار والحرب والارهاب يمتلك من الخبرات المؤلمة كم هائل تجعل من شخصيته شخصية عدوانية للأخرين.

٦_ الفقر والبطالة فقد يلجا فرد او مجموعة افراد الفقراء والمحرومين والمتعطلين عن العمل الى تحصيل رزقهم بأساليب غير مشروعة من قبيل التحايل على القانون أو الابتزاز او التزوير او السرقة او الاتجار بالمواد المخدرة والممنوعة.

٧_ المناخ الاسري المفكك يهيئ لدفع الفرد على السلوك العدواني وعلى الاجرام كذلك ." وهذا العنف يؤدي الى إنتاج شخصية سلبية التي تعتريها روح الهزيمة والضعف والقصور, وهو يشكل الاطار العام لعملية تشريط تربوي سلبية تبدا في اطار الاسرة, وتنتهي في أحضان المؤسسات التربوية المختلفة".[٢٣]

٨_ مشاهدة العدوان او مشاهدة العنف في التلفزيون مثلا او مواقع التواصل الاجتماعي يؤدي الى تعليم الفرد العدوان بوصفه أسلوبا الحل الصراع وخاصة عندما ينعدم التوجيه والاشراف والرقابة

٢_ الانفعال في الشخصية العراقية :

ان عصرنا هذا الذي نعيش به لا يعد عصر فحسب ولكنه عصر القلق والتعصب والانفعال, ولاشك أن كل هذا وذاك يؤثر تأثرا جذريا في الحالة النفسية للفرد فيصاحب أي نوع من الانفعال تغيرات بنية خارجية وأخرى فسيولوجية داخلية, وبعد الانفعال السلبي سويا اذا تمكن الفرد من إخماده ومواجهته والتغلب عليه," ولكن عندما يصبح الانفعال مزمنا أو عظيما يضطرب التوازن الكيميائي للجسم ويظهر الاختلاف المستمر في عدة أشكال وصور منها الاضطراب النفسي جسمية"[٢٤]

ويعرف **(سبيلبرجر: Spielberger)** الغضب كحالة بانه " حالة عاطفية تتركب من احاسيس ذاتية تتضمن التوتر والانزعاج, و والاثارة والغضب, كما انه حالة انفعالية موقتة تكون ناتجة من شعور الشخص بالضيق, كما انها تختلف في شدتها من موقف الى اخر وفترة زمنية الى اخرى"[٢٥].

اما سمة الغضب فتشير الى "بعد ثابت في الشخصية خاص بالاستهداف الغضب او الميل له, وهذا يعني ان الافراد ذو سمة الغضب يعيشون حالة الغضب بشكل اكثر تكرارا واكثر شدة, ولقد عرفت بلغة الكم بعدد المرات التي يشعر بها الفرد بحالة الغضب في وقت محدد والشخص مرتفع سمة الغضب يميل للاستجابة لكل الموقف او اغلبها بالغضب". [٢٦]

ومن الملاحظ ان ردت فعل الاشخاص في المجتمع العراقي الذي تعرض الى اغلب المواقف الصعبة من حصار وحروب وارهاب وطائفية تتسم بالغضب وعدم الثبات الانفعالي, اذا ما عرفنا "ان الثبات الانفعالي هي من اهم السمات التي تميز قدرة الشخص على تناول الأمور بصبر واناة ولا يستنفر ولا يستثار من الأحداث الطارئة ويتسم بالهدوء والرزانة, ويتحكم في انفعالاته المختلفة (الغضب, الخوف, الغيرة, الكراهية)"[٢٧]، وهذا عكس الشخص الذي يكون سريع الانفعال والتعصب, واذا ما عرفنا ان اختلاف التنشئة الاجتماعية في المجتمعات يودي الى اختلاف في نمط الشخصية, وهذا امر راجع الى الظروف النفسية والاجتماعية وحتى الظروف البيئية التي تمر بها المؤسسات الاجتماعية المسؤولة عن تشكيل شخصية الفرد.

واذا ما تعرض الفرد الى الضغوطات بكل انوعها المتعارفة ومنها الضغط الأسري " وهي مجموعة من المؤثرات النفسية أو الاجتماعية التي تمارس ضغطها على الفرد من خلال علاقاته بأسرته ويندرج تحتها

التنافر الأسري (الخلاف بين الأب والأم) انفصال الوالدين, القسوة, النبذ, المعاناة من الوضع الاقتصادي, والضغط العدواني ويأخذ صورة سوء المعاملة والتهديد بالعقاب, والضرب, والقتال, والتحقير, وايضا الضغط السيطرة, فرض الآراء والاتجاهات, واخيرا ضغط الدونية, وهي عملية الاخضاع (فكريا واجتماعيا) أي النظرة المتعالية أي اشعار الفرد بانه ما يزال صغيرا, واستشعاره بالتفوق الحضاري, والفروق الطبقية, واحتقار الأقلية من قبل الاكثرية, والتفوق الذكوري"[٢٨]

فالضغوطات الاجتماعية اذا ما تعرض لها الفرد وبشكل مستمر ومتفاوت وقد تكون شديدة بسبب الظروف الطارئة مثل الحصار والحروب المستمرة كما هو الحال في المجتمع العراقي فان شخصية الفرد تتأثر بتلك الضغوط وتصبح سمت الانفعال من السمات الواضحة في الشخصية كما هو الحال فالشخصية العراقية التي تعرضت الى الضغوطات كثيرة ومستمرة مما جعلها شخصية منفعلة, سريعة التأثر والتأثير, أي ان الموقف له دور في ردة فعله اتجاه سلوك الاخرين فهو ذو شخصية متقلبة وشكاك قليل النكتة جنائزي حزين حتى في الغناء والطرب لا يعرف الفرح بسبب ما اصابه من ويلات ومجن ومن الناحية النفسية فان الحزن والغضب هو تعبير على حرب ضد الذات الجريحة والمهانة والمعذبة وهو في الوقت نفسه تنفيس عن الهموم والكرب والمظالم هذا من ناحية الضغوطات .

اما من ناحية اخرى ان انعدام العدالة في المجتمع "يعني عدم المساواة في كافة جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية, أمام النظام القائم ومؤسساته وان انعدام العدالة الاجتماعية يعني بالمقابل الاضطهاد والظلم والجور والخضوع والاخضاع, لذا تشكل انعدام العدالة مظهر صراعي"[٢٩] يساعد على تنمية سمت الانفعال لدى الافراد المتضررين من عدم وجود عدالة اجتماعية .

ثانيا: السمات الاجتماعية في الشخصية العراقية:

اما السمات الاجتماعية فيمكن تلخيصها بالاتي :

١_:سمة الاغتراب في الشخصية العراقية :

يصف هذا المفهوم في أكثر معانيه عمومية إحساس الأفراد بالغربة عن بعضهم البغض أو عن موقف أو عملية معينة, "وهو مفهوم ذو مركزية في كتابات **(كارل ماركس)**, ويقترن عادة بعلم الاجتماع الماركسي, ولهذا الموضوع أبعاد فلسفية وسوسيولوجية وسيكولوجية"(٣٠).

أن موضوع الاغتراب او الاستلاب يمثل ميدانا اخر يثبت ان سمات الشخصية ذات فائدة مهمة في فهم النشاطات المتعددة للأشخاص داخل المجتمع الواحد والتنبؤ بها, اذا امكن بلورة وصياغة المفهوم بطريقة اخرى مختلفة, بما في ذلك معنى الشعور بالعجز او السيطرة الداخلية او الخارجية والشعور باليأس او بالا جدوة, وهذا يعني انهيار شعور الفرد بارتباطه بالمجتمع الذي يعيش به, او انماط اخرى اكثر تركيزنا على الاغتراب والاستلاب , وذلك للافتقار الى المعرفة الاجتماعية والسياسية والى المعرفة في مجالات نوعية خاصة والتي يفتقر الفرد المعلومات عنها, وقد ارتبط موضوع الاغتراب بالعادة بالمراكز الاجتماعية والاقتصادية، ويرى" **سيجموند فرويد** ان الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الشعور وليس العكس, لذلك هناك اختلاف بين المنهج الماركسي الذي يبحث في الاغتراب من ناحية الخارجية, ومنهج التحليل النفسي لفرويد وزملائه الذين ينظرون للاغتراب من الجانب الداخلي, ما نراه مفيد في بحثنا هذا هو نظرة فلاسفة العقد الاجتماعي لموضوع الاغتراب الذي يصب في زاوية خسارة الفرد لبعض حقوقه في الدولة الحديثة والمجتمع الجديد غير التقليدي".(٣١)

اما الدكتور **قيس النوري** يرى ان كلمة الاغتراب " تثير أكثر من معنى, حيث أنها تتضمن بين ايحاءاتها المتعددة مفهوم الاستلاب والانفصال والانعزال والهامشية والابتعاد او الناي والتحليل المعياري, وافتقاد الهوية وضياع الانتماء".(٣٢). فضلاً عن تنوع وتباعد منطلقات استخدامها التي قد يغلب عليها التوجه السياسي أو النفسي أو الديني أو الفكري أو الاجتماعي أو الفلسفي أو الثقافي أو الاخلاقي, لكننا في هذا البحث نعني بها انفصال الفرد عن المجتمع ثقافيا وفكريا واجتماعيا ونفسيا, ومع تداخل هذا المفهوم مع

مفهوم المصاب بفصام الشخصية الذي يطال المصابين بداء الشيزوفرينيا, الذين يكونون عاجزين على تحقيق التكامل النفسي الواعي مع انساق ومعايير الواقع, لكن المغتربين هم اشخاص عادين أسوياء لا يعانون من مرض الذهان بل يدركون ما يواجههم من صراعات وتناقضات ويوظفون العقلنة لمعالجتها والتكيف معها قدر المستطاع, وهذا ما لا يستطيع فعله الاشخاص المصابين بالشيزوفرينيا الذي يحيون حياة خيالية مشبعة بالأوهام التي لا تختلف في جوهرها عن الأحلام.

ولكي نعرف كيف يصل الفرد الى قراره السليم والرشيد لابد من فهم هذا الشخص وفهم شخصيته والمؤثرات التي تؤثر فيه لذلك ان العلاقة بين الفرد والجماعة تذهب بنا دائمان الى تساؤلات عدة منها لماذا ينتمي الفرد الى تلك الجماعة بالذات دون غيرها وهل الفرد داخل هذه الجماعة ستذوب شخصيته لصالحها ويكون تفكيره هو انعكاس لها ولصوتها, ومن التساؤلات الاخرى هل الفردانية في المجتمع هي الحل ام الجماعية في التفكير.[٣٣] وماذا عن الهوية الشاملة في ضل تعدد الهويات والجماعات والانتماء في المجتمع العراقي وخاص بعد الاحتلال الامريكي للعراق، وماذا اذا صادرة الجماعة هوية وشخصية الفرد ومن ثم وصلت الى مرحلة تكون فيها اقوى من الدولة وتصادر هويتها وشخصياتها، هنا قد تظهر حالة من الاغتراب الاجتماعي لدى الفرد حين لا يعرف أي السلوك هو الاقرب اليه, حيث ان الجماعة التي ينتمي اليها الفرد تفرض عليه التزامات والشروط قد يكون مغترب عن الافراد الاخرين في الجماعات الاخرى فتكون هناك قطيعة وحالة من الانعزال الاجتماعي لدى الافراد وعدم التكيف مع افكار الاخرين.

ويمكن القول وبغض النظر عن اراء بعض المفكرين واختلافهم في تفسير الاغتراب من زاوية نفسية او اجتماعية او طبقية اقتصادية فهم يتفقون على مبدا اساس ان الفرد هو ضحية تعامل المجتمع وعدم اندماجه معه وبالتالي انعزاله عن الاخرين وعدم قدرته على التكيف مع الظروف الحياة, فيكون امام خيارين اما الثورة على كل ما هو حوله من قيم وتقاليد وعادات او الهروب الكامل من المجتمع لعدم القدرة على التغير وهذا من ندعوه بالاغتراب الاجتماعي.

لذلك ان احتكار السلطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في يد مجموعة صغيرة بعد الاحتلال الامريكي للعراق جعل من العديد من الأفراد لديهم شعور بالاغتراب" وهذه الحالة تمنعهم من الابداع

والازدهار على المستوى الفكري والابداعي ايضا وهذا يدفعهم نحو الاغتراب عن الامل والتصميم على فقدان الهوية الشخصية مما يؤدي الى الاحباط والاستياء, وهذا الاستلاب او الاغتراب يؤدي الى عواقب وخيمة على المجتمع بأسره, وان الشخصية المغتربة عن نفسها ومجتمعها ووطنها محبطة ومترددة وسلبية غير قادرة على تحمل المسؤولية بسبب تراجع قيمة الحياة عند الانسان وإحباطاته ويأسه من إصلاح الأوضاع الاجتماعية والنفسية والأخلاقية" .[٣٤]

٢_سمة التعصب في الشخصية العراقية :

يعود مفهوم التعصب الى " القرن الثامن عشر وجرى وضعه للتنديد بتزمت ديني واسع, وساد الاعتقاد انه سيزول مع زوال ذلك التزمت, فلم يحصل شيء من ذلك, وهذا دليل على انه غير موجه فقط لحل مسالة دينية تماما, بل يغطي حاجات الانسان الاشد تعقيدا وتسترا"[٣٥] ويعرفه اوديب اسحاق ان التعصب " هو غلو المر في اعتقاد الصحة بما يره, وإغراقه في استنكار ما يكون ضد ذلك الرأي حتى يحمله الاغراق والغلو الى اقتياد الناس الى رايه بالقوة وثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق"[٣٦].

والتعصب إذن كسمة نفسية اجتماعية قد تكون له أشكال عدة بحسب شخصية المتعصب, وتختلف الاتجاهات النفسية والاجتماعية التي يقوم عليها التعصب بحسب ما اذا كانت هذه الاتجاهات ضمن بناء الشخصية, " وقد يكون التعصب بحسب سمة من السمات المتصلة في الشخصية, على شكل مرضي, او وربما يأتي نتيجة خبرة صادمة, وربما يكون غالبا نتيجة تواؤم وتلائم مع المعايير الاجتماعية السائدة".[٣٧]

ولا ننكر وجود هذه السمة في المجتمع العراقي قبل الاحتلال الامريكي لاكن كانت بصورة اخف من هذه الصورة, وقد تكون هذه السمة موجود بالريف اكثر من المدينة بفعل الانفتاح ونسبة التعلم في المدينة ووجود المؤسسات الامنية والتربوية وغيرها, لاكن بعد الاحتلال الامريكي نلمس وجود هذا السمة في الشخصية العراقية واصبحت تنضج من جديد بعد فتور طويل, بسبب السياسات التي اعتمدها الاحتلال والتي كانت قائمة بصورة كبيرة على التبعية والانتماء والتقسيم , فالتقسيم الطائفي والقومي والثني عزز من حالة التعصب والتبعية على حساب الكفاء السياسية او العلمية. ومن هنا نشأ تحول اجتماعي جديد لدى الافراد فبعدة ان اطيح بمؤسسات الدولة التي كانت تدير البلاد امنيا وخدميا دفع الخوف الناس لتباع القوة التي

تحميهم وتعد الطائفة في مقدمة تلك القوة ومن ثم تأتي العشيرة ومن ثم اتت الدولة بنظام الاغلبية للانتماء والتبعية فكانت هي الاخرى تدعم وجود هذه السمة في المجتمع العراقي وعملة على وجود مؤسسات تديمها وتحميها لوجود مصالح سياسية.

في البداية علينا ان نؤمن ان المجتمع العراقي متعدد دينيا ومذهبيا وقوميا فهناك المسلم والمسيحي والصابئ واليزيدي, والشيعي والسني, ومذاهب مسحية متعددة, والقوميات العربية والكردية والتركمانية, اضافة الى الاختلافات الثقافية والفكرية والعقدي, وكثرة الاتجاهات السياسية وهذا ما يجعل وجود حالة التعصب داخل المجتمع موجودة بتأكيد على الرغم من ضعفها في فترات وستفحالها في فترات اخرى. او كما رأى ابن خلدون عند شرحه لانحسار العصبية, "فهي تقل وتنحسر عندما تقوى الدولة او المملكة, وتقوى وتنتشر عند ضعف الدولة او المملكة".[٣٨]

ان ضعف النظام السياسي بعد الاحتلال الامريكي للعراق, فتح باب التعصب بكل اشكاله المختلفة "التعصب المذهبي, والتعصب القبلي, وحتى التعصب المناطقي" في المجتمع العراقي, فان الاحتلال غذا هذا التعصب بعدة امور وهي الاتيان بثقافة سياسية من شئنها تقسيم المناصب السيادية للبلاد بشكل قومي وطائفي وقبلي, والامر الثاني هو الغاء التجنيد الألزامي الذي كان يعد من اساسيات اللحمة الوطنية, والامر الثالث والاهم تدهور الوضع الامني وكما رأى **(د.قاسم حسين صالح")** ان العراقيين كانوا مضطرين لا مختارين للجوء الى جماعة أو قوة تحميهم بعد سقوط خيمة الدولة التي كانوا يعيشون فيها بالأمان مدفوعون بـ(سيكولوجية الاحتماء) من خطر يتصاعد في حاضرهم او تهديد بخطر مستقبلي يتوقعونه بيقين"[٣٩] .

الخاتمة

١. ان التحولات الاجتماعية والنفسية والسياسية في المجتمع العراقي بعد ٢٠٠٣ انمت الكثير من السلبيات والنواقص والعيوب والاعتلالات، في بعض سمات الشخصية العراقية واهمها (الانفعال، والازدواجية، والاغتراب، والتعصب) بسبب ما مر به المجتمع العراقي بحالة شبيها فالفوضى وخاص في سنين الاحتلال الاولى، لما شهدته تلك السنين من حروب وصراعات بكافة اشكالها، وازمات مادية واجتماعية وثقافية، كل هذا جعل من الفرد العراقي شخص يميل للتعصب

والعدوانية اتجاه نفسه والاخرين بعد غياب وضعف مؤسسات الدولة كافة وخاصة الامنية والحقوقية.

٢. تأثرت الشخصية العراقية في عملية التحولات السياسية والاجتماعية بعد ٢٠٠٣ في العراق من خلال تنمية العديد من سماتها السلبية ومنها الازدواجية والانفعال والتعصب والغضب والاغتراب، وهذا انتج العديد من التداعيات في بنية الشخصية العراقية الوطنية والفردية وتبرز ملامح هذه التداعيات من خلال سلوكيات العنف والصراعات بصور مختلفة منها القتل والتفجير والجريمة المنظمة وغيرها من السلوكيات الشاذة التي تؤكد على ما عانته هذا الشخصية على مر الزمن بسبب الحروب والازمات المتواصلة، فالاحتلال الغربي للعراق بعد ٢٠٠٣، يعد من اهم التحولات واكثرها تأثيرا على عملية تشكيل الشخصية العراقية، لان محاولة تغير النظام الدكتاتوري بالطريقة الهمجية التي استخدمتها القوات الامريكية وحلفائها الغربيين وما خلفته من دمار مادي ومعنوي هز اهم المُشكلّات الاجتماعية للشخصية العراقية وهي (الاسرة، المجتمع، والدولة) ما اثر سلبا من خلال تنامي السمات السلبية في الشخصية العراقية.

٣. أصبحت الشخصية العراقية بعد عام ٢٠٠٣ اكثر انتهازية بسبب التحولات الثقافية والاقتصادية التي لم تكن حقيقية ولم يكن مخططاً لها في المجتمع العراقي .

هوامش الدراسة

(١) اليونسكو: معجم العلوم الاجتماعية، ترجمة و إعداد مجموعة من الأساتذة، تصدير وتقديم أبرهيم المدكري, الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص١٦٥

(٢) حنا بطاطو واخرون: المجتمع العراقي حفريات سوسيولوجية في الاثنيات والطوائف والطبقات, منشورت معهد الدراسات الاستراتيجية, بغداد ٢٠٠٦, ص١٣.

(٣) قيس النوري: الشحصية العربية ومقارباتها الثقافية, دار ومكتبة البصائر, لبنان, بيروت ٢٠١١,ص٣٨_٣٩.

(٤) شفيق ابراهيم الجبوري: واقع المجتمع العراقي دراسة سوسيولوجية , منتدى المعارف للطباعة والنشر, لبنان, بيروت٢٠٢٠, ص٥٢.

(٥) وليد عطا الله الحديدي: الحراك الاجتماعي وتداعيته هلى المجتمع العراقي بعد الاحتلال الامريكي, رسالة ماجستير غير منشورة, جامعة الموصل , كلية الاداب ٢٠١٠,ص٩٤.

(٦) شفيق ابراهيم الجبوري: واقع المجتمع العراقي دراسة سوسيولوجة, مصدر سابق, ص٥٣.

(٧) أونسة محمد عبد الله: التربية الاسرية تحديات الواقع المعاصر والرؤية المستقبلية, دار نيبور, العراق, الديوانية٢٠١٤, ص٢٢.

(٨) اسماعيل علي سعد: قضايا علم الاجتماع السياسي, دار المعرفة الجامعية, القاهرة ١٩٨١, ص١٦٣.

(٩) الخولي, سناء ،الزواج والاسرة في عالم متغير ،دار المعارف الجامعية ،الاسكندرية ، بدون سنة طبع ، ص٥٢-٥٣

(١٠) مايكل أوترمان وريشارد ويلسون: خطة متكاملة لاقتلاع عراق وزرع آخر, سركة المطبوعات للتوزيع والنشر, بيروت٢٠١١, ص٢٠٦.

(١١) علي الودي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي, دار ومكتبة دجلة والفرات, لبنان, بيروت, ص٢٧٨.

(١٢) اسعد الدين ابرهيم, المجتمع والدولة في الوطن العربي, مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢ ,البنان ، بيروت١٩٩٦ ، ص ٤٥.

(١٣) محمد محى الجنابي: سياسات إعادة تأهيل مجتمعات مابعد النزاع وانعكاساتها على الاستقرار السياسي في العراق, دار العارف للطباعة والنشر , بيروت ٢٠١٩, ص٨٠.

(١٤) باقر ياسين: الشخصية العراقية , دار اراس, العراق, اربيل٢٠١٣, ص ١١٨.

(١٥) سيغموند فرويد, الذات والغرائز ط٣، ت:محمد عثمان نجاتي، القاهرة، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٩١, ص ٥٨

(١٦) محمد شمال حسن, سيكولوجية الفرد في المجتمع ، دار الافاق العربية, القاهرة ، ٢٠٠١,ص٣٤٠.

(٣) طارق محمد عبد الوهاب واخرون: المدخل الى علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته , مركز النشر العلمي ، القاهرة ، ٢٠١٤, ص١٠٠

(١٨) عبد المنعم الحفني: موسوعة علم النفس , المجلد الثاني , , دار نوبليس , لبنان, بيروت، ٢٠٠٥, ص١٦٥.

(١٩) مجموعة مؤلفين: موسوعة علم النفس, ت:أسعد رزاق, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, لبنان, بيروت ، ١٩٧٩, ص١٣٤.

(٢٠) مصطفى فهمي: الدوافع النفسية , دار مصر للطباعة والنشر, ط٣, مصر , القاهرة ١٩٥٥, ص ٧٦.

(٢١) محمد السيد أبو النيل: علم النفس الاجتماعي دراسات عربية وعالمية, الجزاء الاول, دار النهضة العربية, لبنان, بيروت، ١٩٨٥, ص١٧٧_٢٠١.

(٢٢) محمد شمال حسن: سيكولوجية الفرد في المجتمع, دار الافاق العربية, القاهرة٢٠٠١, ص٣٤٣_ ٣٥٩.

(٢٣) علي سعد وطفة: بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي, مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت، ٢٠٠٠, ص٣٤.

(٢٤) صالح حسن الداهري: علم النفس, دار صفاء للطباعة والنشر, الاردن, عمان٢٠٠٨,ص٢٩٩.

(٢٥) محمد السيد عبد الرحمن وفوقية حسن: مقياس الغضب كحالة وسمة, دار قباء للطباعة والنشر, مصر, القاهرة١٩٩٨,ص٩.

(٢٦) محمد السيد عبد الرحمان: المصدر نفسه، ص ١٠.

(٢٧) صالح حسن الداهري: علم النفس, مصدر سابق, ص٢٩٠.

(٢٨) فيصل عباس: معرفة الشخصية , دار المنهل اللبناني للطباعة والنشر, بيروت ٢٠٠٣, ص٤٥.

(٢٩) أحمد خليل الحمادي: الصراعات الداخلية, مصدر سابق ,ص ١٥.

(٣٠) محمد الجوهري وعدلي السمري: المشكلات الاجتماعية , دار المسيرة للنشر والتوزيع, الاردن, عمان٢٠١١, ص٣٩٨.

(٣١) نقلن عن, معاذ قنبر: الاغتراب في التحليل النفسي(نموذج فرويد _ يونغ_ فروم), http://alantologia.com/blogs/6783/.

(٣٢) قيس النور ي : الشخصية العربية ومقارباتها الثقافية، دار البصائر، بيروت ,لبنان ٢٠١١, ص٣٠٨.

(٣٣) رجاء محمد قاسم: المرأة وصناعة القرار, بيت الحكمة , العراق, بغداد ٢٠١٥, ص٣٢٠.

(٣٤) محمد عدنان محمود: السلوك السياسي وقيم المجتمع، دار سطور للنشر والتوزيع, العراق, بغداد٢٠٢٠, ص٣٢٨.

(٣٥) اندريه هاينال واخرون: سيكولوجية التعصب، ت: خليل احمد خليل, دار الساقي, لبنان, بيروت ١٩٩٠, ص٨.

(٣٦) اديب اسحاق واخرون : اضواء على التعصب, دار امواج, ١٩٩٣, ص١٣.

(٣٧) عبد المنعم حنفي: موسوعة علم النفس, مصدر سابق,ص٢٦.

(٣٨) ينظر: مقدمة ابن خلدون تحقيق حامد أحمد طاهر, دار الفجر للتراث, مصر, القاهرة ٢٠٠٤, ص٣١٨.

(٣٩) قاسم حسين صالح: المجتمع العراقي، الدار العربية للعلوم ناشرون, لبنان, بيروت٢٠٠٨, ص١٤٤.